«صديق العمر»: حالة مصر الحرجة بين مرحلتين!

أخطاء تاريخية لا حصر لها فى مسلسل «صديق العمر» الذى يُفترض أنه يقدم رؤية درامية للعلاقة بين الزعيم الراحل عبدالناصر ورفيق رحلته حتى 1967 عبدالحكيم عامر. صحيح أنها لا تُقارن بما يجوز اعتباره خطايا تاريخية فى مسلسل «سراى عابدين» الذى يُفترض أنه يقدم رؤية درامية لبعض جوانب السلطة فى عهد الخديو إسماعيل. ففى هذا المسلسل استهانة مهولة بالمعرفة وليس فقط استهتارا بالتاريخ.

وفى مسلسل «صديق العمر» مثل هذه الاستهانة بدرجة أو بأخرى، فضلاً عن التسطيح الشديد فى معالجة أزمات معقدة. ولذلك ربما يكون أهم ما يجمعهما هو تعبيرهما عن الحالة الحرجة التى تعانى منها مصر على صعيد العقل والمعرفة. فالمشكلة الجوهرية فى «صديق العمر» لا تعود فقط إلى أخطاء فى المعلومات والتواريخ كان ممكناً تلافيها بشىء من التدقيق، بل ترجع أيضاً الى الازدياد المستمر فى مستوى الضحالة. ومؤدى هذا كله هو غياب العقل الذى تزداد العوامل المؤدية إلى إخراجه من الخدمة فى مجتمع تمتزج أزمته المعرفية بأخرى حضارية على نحو يجره إلى الوراء. ولو أن المشكلة محصورة فى أخطاء معلوماتية، على النحو الذى لم يثر غيره حنق من أساءهم المسلسل، لكان الخطر أقل بكثير. وكان ممكناً فى هذه الحالة أن نكتفى بتصحيح هذه الأخطاء أو أهمها، لأن حصرها كلها قد يتطلب مساحة ربما تساوى تلك التى كُتب فيها السيناريو. وكان السيد سامى شرف قد بدأ فى ذلك قبل أن يصيبه

الملل بعد أن كتب أربع حلقات، فتوقف عند الحلقة التاسعة لأن (تزوير التاريخ لا يمكن أن يكون لهذه الدرجة غير المسبوقة) على حد تعبيره.

غير أن المشكلة أبعد بكثير من هذا التشخيص. فالتزوير القصدى للتاريخ هو فعل استثنائى، فضلاً عن أنه يوحى بامتلاك «المزَّور» المعرفة الصحيحة التى يسعى إلى تزويرها. ولكن المشكلة تكمن أصلا فى الاستهانة بهذه المعرفة والاستخفاف بالقواعد التى ينبغى الالتزام بها فى أى عمل. ولذلك فهى ليست مشكلة هذا العمل وحده، بدليل المأساة المسماة «سراى عابدين»، فضلاً عن أنها شائعة فى أدائنا لأعمالنا عموما فى سياق عام تسوده ضحالة معرفية تدق جرس إنذار ينبه إلى حالة مصر الحرجة.

ورغم أن هذه الحالة بلغت ذروتها فى السنوات الأخيرة، فهى تعود من حيث مقدماتها إلى الفترة التى تناولها «صديق العمر». ولكن ضحالة العمل غيَّبت الصلة بين هذه المقدمات وما بلغته حالة مصر الحرجة الآن.

فقد اختزل المسلسل أزمة الوحدة فى قرارات التأميم، وفى نقل ضباط مصريين إلى سوريا رغم أنهم لم يذهبوا دفعة واحدة على نحو يخلق الصدمة التى تخيلها صانعو هذا المسلسل. كما أنه ما كان لهذين العاملين الاقتصادى والعسكرى أن يحدثا أزمة إلا نتيجة الإصرار على فرض النظام السياسى الأحادى على سوريا بعد مصر فى ظروف مختلفة كثيراً. فقد تم حل الأحزاب السورية، بما فيها تلك التى حملت دعوة الوحدة على أكتافها، بعد ثلاثة أسابيع فقط على الاندماج بين البلدين. وهذا هو المصدر الرئيسى للأزمة، لأن تأميم السياسة وليس الاقتصاد حرم الوحدة من مساندة كانت فى أشد الحاجة إليها من الأحزاب والقوى التى دفعت

باتجاهها، ووضع مصيرها فى أيدى السياسيين أصحاب المصالح ورجال الأمن ومحترفى البطش.

واستهان الزعيم الراحل وصديق عمره وكل أصدقائه بالآثار السلبية المتوالية لتهميش السياسيين السوريين القوميين المؤمنين بالوحدة عبر تحويلهم إلى «ديكور» فى سلطة مفرطة فى مركزيتها.

وكانت هناك علامات مبكرة تدل على التداعيات الخطيرة لهذا التهميش. ومنها على سبيل المثال فقط الاستقالات الجماعية التى قدمها عدد من أبرز السياسيين الوحدويين السوريين فى ديسمبر 1959. وكان من بين المستقبلين زعيمان من الوزن الثقيل هما أكرم الحورانى نائب رئيس الجمهورية، وصلاح البيطار وزير الثقافة والإرشاد المركزى.

وحاول بعضهم فى خطابات استقالاتهم تنبيه عبدالناصر إلى الخطر القادم، ولكن هيهات أن يصل صوت الحقيقة إلى قمة سلطة مركزية تركت نفسها لمن أغرقوها فى بحور من قصص مؤامرات كان تكاثرها كالفطر كفيلاً وحده بالتفكير فى مدى جديتها ومقاصد من ينسجونها.

ولو أن صانعى المسلسل بذلوا الحد الأدنى من الجهد لعرفوا أن نقل 1400 ضابط مصرى إلى سوريا ما كان له أن يخلق أزمة إلا لاقترانه بإبعاد ضباط سوريين الى مصر بطريقة كانت هى التى دفعتهم للمشاركة فى التخطيط للانقلاب على الوحدة وهذا فضلا عن الاعتماد على آخرين فى سوريا لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية التى يمكن أن تجعلهم هدفاً سهلا للثورة المضادة.

ولم يكن هذا الفشل فى إدارة الوحدة إلا نتيجة سعى قمة السلطة إلى تجفيف ينابيع السياسة بدون إدراك أن الجفاف المترتب على ذلك سيعُم

المجتمع كله تدريجيا وسيصيب عقله أيضا. فكان تجفيف السياسة هو المصدر الأول للأمراض التى بدأت فى تلك المرحلة ودخلت مصر بسببها فى حالة حرجة أخذت تزداد حتى أصابت عقل المجتمع فى مقتل. ومع ذلك مازال الميل إلى هذا التجفيف مستمراً حتى اللحظو الراهنة بعد أن بلغ الجفاف الاقتصادى والاجتماعى، كما المعرفى والعلمى، أعلى معدلاته.